# الأحزاب رهينة الأنماط المحليّة: الناصرة مثالاً

**علاء حليحل***

تمرّ الأقلية العربية الفلسطينية في إسرائيل في تغييرات كبيرة في العقود الأخيرة، تنعكس سلبًا وإيجابًا على واقع حياة أفرادها. ومن أبرز التغييرات السلبيّة التي تمرّ بها الأقلية الضعفُ البادي على الأحزاب السياسيّة، وعدم قدرتها على مواكبة التغيّرات الاجتماعيّة والديمغرافيّة والثقافيّة، الأمر الذي يتجسّد في عجز القيادات السياسيّة التقليديّة عن وضع مخطط مستقبليّ واضح أو استشرافيّ، يعكس هذه التغيّرات ويحاول تقديم حلول شافية خارجة عن دائرة ردّ الفعل، سواء أكان ذلك على مستوى علاقة الأقلية مع الدولة والنظام السياسيّ، أم على مستوى العلاقات المجتمعيّة الداخليّة. ومن مظاهر ذلك قيام مؤسّسات المجتمع المدني بصياغة وثائق رؤيا ومطلبيّة، لمحاولة سدّ الفراغ المتعلق بالرؤيا المستقبلية للواقع المنشود .

ما يهمّني في هذه المقالة التأثير الذي خلّفه تراجع أداء الأحزاب الفعليّ بين الناس، من بوصلة ومرجعيّة، من مركز لصنع القرار وقيادته، إلى خيارات مطروحة من ضمن خيارات أخرى كثيرة، بعضها يعزف عن العمل الحزبيّ، وبعضها يجنح نحو الانخراط التامّ في بنْية الدولة الاجتماعيّة والسياسيّة، وبعضها يدفع الناس للتركّز في الحيّز القريب الحميميّ، وهو ما يؤدّي -بنظري- إلى تقلّص مستمرّ في مفهوم "الوطن"، ليغدو لدى الكثيرين المنطقةَ الجغرافية القريبة أو القرية/ المدينة، على حساب مركّبات جَمعيّة وجامعة أخرى. إحدى علائم ذلك تعاظُمُ الإعلام المحلي (الإلكترونيّ بشكل خاص) حيث

أضحى لكلّ قرية/ مدينة موقع خاصّ بها (أو أكثر)، يهتمّ بشؤون المنطقة المصغّرة ويُحوّل حياتها الاجتماعيّة بتفاصيلها الهامّة والتافهة إلى محور الاهتمام الحقيقيّ.

ولذلك، تشكّل انتخابات الناصرة الأخيرة نموذجًا حيًّا لهذه النزعة، وهي تشير –أكثر من غيرها، وباعتبار الناصرة "عاصمة" الأقلية التقليديّة- إلى ضعف المركز ونموّ الأطراف، وقد يسمّيها البعض عودة الرّيف وهيمنته بدلاً من محاولة بناء المدينة الفلسطينيّة المتخيّلة. الناصرة كانت لفترة طويلة المدينةَ الفلسطينيّة المفترضة، وقد نجح الخطاب الإعلاميّ والحزبيّ التقليديّ في تثبيت هذه الصبغة، وخصوصًا في فترة توفيق زيّاد، إلاّ أنّ تراجع هذا الخطاب بعد وفاته وبعد دخول قوى سياسيّة أخرى، جعل هذا الخطاب أقرب إلى النوستالجيا. لا يُعاب أحدٌ على ذلك، إذ إنّ التغيّرات اللاهثة في حياة جميع البشر في العشرين سنة الماضية، ومن ضمنها نحن، مرتبطة بقوى كونيّة وتيّارات ثقافيّة وسياسيّة أكبر من أن تُقاوم بالأدوات المتاحة. لكنّ المشكلة الأكبر تجلّت في قصَر النظر الجسيم الذي ميّز –وما يزال- أحزابنا وحركاتنا السياسيّة، وتحوُّل خطابها (الذي يمكن وصفه بأنّه –في أقّل تقدير- خطاب ممجوج وغير مُبدع) إلى كليشيهات غير مُجْدية -برغم صحّة معظمها-. لقد فشل المركز السياسيّ في مجاراة التغيّرات والتأقلم معها (تنظيميًّا وإعلاميًّا وشعبيًّا)، وهو ما أدّى إلى نموّ الأطراف التي بدأت تطالب بحصّتها من الشرعية الجماهيريّة، مستغلةً بذلك السُّدّة التي توفرها الشبكات الاجتماعيّة والنيوميديا.

الانشقاق الذي حدث في جبهة الناصرة، وطرح علي سلاّم لقائمة منفصلة عن بيته السياسيّ التقليديّ، قَلَبَا معادلة "مركز-أطراف"، وأسّسا لواقع سياسيّ جديد جرى فيه إبراز محلّيّة الطرح ("ناصرتي") بدلاً من "الجبهة" وامتدادها القُطريّ. لقد استخدم علي سلاّم الحلّ الأضمن والأسهل في وضعنا السياسيّ المُتردّي: المحلّيّة والمناطقيّة، والخروج الحاسم والشرس على المركز التقليديّ. ومن أجل ضمان نجاح هذا المسعى، كانت هناك حاجة إلى استقطابات عائلية وجهويّة وطائفيّة وثأريّة ضدّ الجبهة، وهي بدورها استخدملت الاستقطابات نفسها .

لقد شكّلت معركة الناصرة الانتخابيّة تعبيرًا مؤلمًا للواقع السياسيّ الذي نعيشه في السنوات الأخيرة، يمكنني تلخيص بعض مميّزاته بما يلي:

1) تعاظم دعم حركات وأحزاب سياسيّة لطرح مناطقيّ ومحلّيّ غير قُطريّ، وذلك بدوافع ثأريّة-تاريخيّة مع الجبهة؛ وتجلّى ذلك بدعم "التجمع" المطلق لسلاّم بعد معاداته والدعوة إلى عدم التصويت له في الجولة الأولى، باعتباره جزءًا من المركز التقليديّ الفاشل، والدعم الصامت المتفق عليه من الحركة الإسلاميّة في شقّيْها لترشيح سلاّم.

2) لجوء "الجبهة"، ممثَّلةً بالقيادة المحلّيّة والقُطْريّة، إلى أساليب التخويف من تردّي مستوى المدينة الأخلاقيّ والمجتمعيّ في حال نجاح "ناصرتي" وعلي سلاّم وتموضع مصوّتي الأحياء "غير الصحيحة" في مركز صنع القرار. وفي مثل هذا الخطاب، تخلت الجبهة نهائيًا عن خطابها اليساريّ التاريخيّ الداعي إلى الالتحام بالطبقات المسحوقة والمهمّشة (كما كان خطاب توفيق زيّاد)، ونشأ وضع عبثيّ ناصبت فيه جبهة الناصرة وقباطنتها العداءَ للطبقات التي من المفروض أن تحمل لها بشائر العدل والتحرّر.

3) بروز وحش الطائفيّة وإذكاؤه. والطامة الكبرى تكمن -بنظري- في هذا السياق لدى "الجبهة" بصفتها حاملة راية المساواة والالتحام النضاليّ ومناهضة الطائفيّة المجتمعيّة. هذا لا يعني أنّ الحركات السياسيّة الأخرى لم تصمت على الطائفيّة هنا وهناك، إلاّ أنّ المتأمَّل من "جبهة كلّ الناس" يجعل هذا النهج ذا وقع أكبر .

هذه المميّزات -وغيرها- تشير بوضوح إلى انهيار متزايد في البنى المجتمعيّة والسياسيّة التقليديّة، وهو انهيار ليس سلبيًّا بالضرورة، إذا نزع نحو تجديد أدوات وآليات العمل الجمعيّ والوطنيّ. فتبدُّل النخَب والمراكز ونشوء مراكز جديدة هما "حتميّة تاريخيّة" بكلّ تأكيد. ما يثير الخوف هنا أن تجنح المراكز الجديدة، أو النخب الجديدة، إلى مسالك ثأريّة من المركز القديم، أو إلى تثبيت مناهج سلوكية وأدائيّة تسعى لتقويض كلّ البُنيان القديم كضرورة نفسانيّة وشعبيّة، دونما فحص لِما يجب الحفاظ عليه وتطويره. وقد يكون أحد المؤشرات السلبية لهذه النزعة رفض سلاّم إجراء مظاهرة قُطْرية في الناصرة

تنديدًا بالحرب على غزة، حيث قررت لجنة المتابعة العليا ذلك كهيئة قُطْرية، فيما رفض سلاّم هذه المبادرة خشية على السياحة والتجارة. هذه بداية أقلُّ ما يقال فيها إنّها غير موفَّقة.

أمّا بخصوص الأحزاب السياسيّة، فعليها الآن التفكير مليًّا في جدوى الانخراط في الانتخابات البلديّة والمحليّة، وجدوى التسويات التي يُضطرّ كلّ حزب إلى تقديمها جرّاء ذلك. إذا كانت الطائفيّة والحمائليّة تطغى في النهاية، رغم كلّ تصريحات القيادات السياسيّة بأنّ وجودها هناك يمنع ذلك، فإنّ هذا الوجود يضرّ بالأحزاب ورسالتها على المستوى القُطْريّ ولا يعود بأيّ فائدة على المستوى المحليّ.

* **علاء حليحل**، كاتب وصحافيّ؛ رئيس تحرير موقع "قديتا" للأدب والثقافة.